

## سورة بني إسرائيل

مكية، وهي مع البسمة مائة واثنتا عشرة آية واثنان وعشرون حرفاً.

### سبب تسميتها:

تسمى هذه السورة "بني إسرائيل"، لأنها تقصّ علينا أحداث الأمة الإسرائيلية منبئةً أنه سيأتي على المسلمين ما أتى على بني إسرائيل. ذلك أن الله تعالى كما اعتبر نبينا مثيلاً لموسى عليهما السلام، فقد اعتبر الأمة الإسلامية مثيلاً للأمة الإسرائيلية، فكان لا بد أن يمر المسلمون بأحداث مماثلة لأحداث اليهود؛ وإلى هذا الأمر تلفت هذه السورة الأنظار.

مع الملاحظة أن هذه السورة قد تناولت أحداث الجزء الأول من التاريخ الإسرائيلي فقط؛ أي من زمن موسى حتى زمن عيسى عليهما السلام. ومن أسماء هذه السورة "الإسراء"، لأنها استهلّت بذكر حادث الإسراء، ولأنه موضوعها الأساسي.

### زمن نزولها:

إنها مكية بالإجماع عند البعض، بينما اعتبر الآخرون آيات منها - يتراوح عددها ما بين آيتين إلى ثمان - مدنيةً (البحر المحيط). وروى ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها مكية، وأنها مما نزل في أوائل الفترة المكية.. أي في السنة الثالثة أو الرابعة.

وورد في البخاري عن ابن مسعود أنه قال في السور بني إسرائيل والكهف ومریم: "إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي" (البخاري: كتاب التفسير).. أي

أنها من السور التي نزلت في بداية البعثة، والتي حفظتها عن ظهر قلب في أوائل أيام إسلامي.

يبدو من قول عبد الله بن مسعود أن هذه السورة مكية كلها أو بعضها، ولكن لا نعرف بالتحديد أي سنة يقصدها ابن مسعود رضي الله عنه من الفترة المكية. وعندي أن السورة ليست مما نزل في أوائل الفترة المكية، بل يمتد زمن نزولها من السنة الرابعة إلى الحادية عشرة، شريطة أن لا تكون الذاكرة قد خانت ابن مسعود، وإلا فأرى أن هذه السورة كلها نزلت ما بين السنة العاشرة إلى الحادية عشرة، بل ربما في السنة الثانية عشرة.

كما أن المستشرقين المسيحيين قد حدّدوا زمن نزولها ما بين السنة السادسة إلى الثانية عشرة قبل الهجرة (تفسير القرآن لـ "ويري"). ومن تصرفات القدر أن الله تعالى جعلهم ينطقون بالحق هنا، وإلا فإن ما يكتونه من نوايا خبيثة ضد القرآن ما كان ليتحقق إلا إذا اعتبروا هذه السورة مدنية.

#### الترابط:

وتتمثل علاقة هذه السورة بالتي قبلها في أن سورة النحل قد نبتت بازدهار المسلمين، مؤكدة أنهم سينالون ملكاً عظيماً. كما ذكركم بتنكر اليهود لنعم الله تعالى، وتغافلهم عن عبادته إبان الغلبة، مشيرةً إلى ذلك بكلمة السبت (انظر سورة النحل: ١٢٥) - وذلك تحذيراً للمسلمين كيلا يتغافلوا عن الله تعالى مثل اليهود، بل يجب أن يُكثروا من عبادته وَعَلَيْكُمْ في أيام الازدهار.

وهذه السورة سورة بني إسرائيل أيضاً أو مأت إلى هذا الأمر وأخبرت أن المسلمين سيُمنحون الحكم على المناطق التي كانت تحت حكم اليهود.

وهناك علاقة أخرى تربط بداية هذه السورة بنهاية سورة النحل، وهي أن الله تعالى قد أخرج المسلمين في أواخر سورة النحل أن المواجهة بينكم وبين أهل الكتاب موشكة، وأهم سوف يؤذونكم مثل الكافرين المكّيين، فعليكم أن

تصبروا على أذاهم إلى أن يحين الوقت الذي تضطرون فيه للدفاع؛ ولئن صبرتم فإن الله سوف ينصركم عليهم في آخر المطاف مثلما وعدكم بالنصر على كفار مكة. والآن في سورة "الإسراء" قد لَمَّحَ اللهُ إلى أن المواجهة بينكم وبين أهل الكتاب ستتم في المدينة، وأنكم ستنالون الحكم والسلطان على أماكنهم المقدسة.

#### ملخص محتواها:

لقد ركزت هذه السورة بشكل خاص على دمارين حلاً باليهود نتيجة عصيانهم لله تعالى مرتين، فأحاطهم في كل مرة عذابٌ مروّع. وقد أشارت بذلك إلى أنه سيأتي على المسلمين أيضاً زمن الفتن المروعة مرتين، ولكن بما أن محمداً هو خاتم النبيين ﷺ فلن تهلك أمته من جراء هذه الفتن الهائلة، بل سوف تخرج منها أعظم شأناً وأكثر لمعاناً من ذي قبل.

هناك أمور ذكرت في سورة النحل إشارةً، بينما تناولتها سورة الإسراء تفصيلاً. فقال الله تعالى في سورة النحل عن العسل ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، مشيراً إلى أن كلام الله تعالى أيضاً يمثل شفاء لهم، أما في سورة الإسراء فقد صرح بهذا المعنى فقال ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الآية: ٨٣).

إن سورة الإسراء أسبق نزولاً من سورة النحل، ولكنها، من حيث محتواها، كانت تستحق التأخير، فلذلك وضعها النبي ﷺ بأمر الله تعالى بعد سورة النحل عند تدوين المصحف. لقد أسلفت أن تدوين السور في المصحف مختلف عن ترتيبها النزولي، لأن الترتيب الحالي كان ضرورياً من أجل تلاوة القرآن ككل، وكذلك بالنظر لحاجات المتأخرين الذين يخاطبهم القرآن. وإنه لمن معجزات القرآن أن كل سورة من سورته تتضمن موضوعاً مستقلاً، وفي الوقت نفسه هناك ترابط قوي بين سورة وأخرى. عندما كانت سور القرآن تنزل منفصلةً وأخذةً في عين الاعتبار حاجة المخاطبين الأولين لم يواجه قارئوها أية مشكلة، لأن موضوع كل سورة كان مكتملاً في حد ذاته، وحين دون النبي ﷺ هذه

السورَ بأمر الله ﷻ بترتيب مغاير لترتيبها النزولي نشأت سلسلة من المعاني الجديدة بالترتيب الجديد - بالإضافة إلى المفهوم المستقل لكل سورة - مما وسّع معارف القرآن ومفاهيمه بشكل محير. فتبارك الله أحسن الخالقين!

ولقد استهل الله ﷻ هذه السورة بذكر الإسراء إشارةً إلى أن محمداً ﷺ قد جاء ليأخذ مكان موسى ﷺ، وأن الأماكن التي وعد بها موسى قومه ستقع في قبضة محمد ﷺ، وأنه ﷺ سيضطر للهجرة مثل موسى، وأن هذه الهجرة ستكون فاتحة خير وازدهار لأمته ﷺ.

ثم تتحدث هذه السورة عن أحداث جرت مع موسى ﷺ، وتبين كيف بعثه الله تعالى، وحقق الرقي لقومه بواسطته، وكيف حذرهم من أن ينسوه ﷻ في أيام الغلبة، ولكنهم لم ينتفعوا بهذا التحذير، فنالوا عقاباً شديداً.

ثم يؤكد الله ﷻ أنه قد جعل القرآن أقوى تأثيراً من التوراة، لذا فإن الانقلاب الذي سيحدثه القرآن سيكون أعظم من الذي أحدثته التوراة. ولكن القرآن أيضاً مهدد بالخطر نفسه الذي هدد التوراة، حيث سينغمس أهله أيضاً في الفسق والفجور أيام ثرائهم ورخائهم، لذا نبهت هذه السورة أن كسب الدنيا ليس أمراً سيئاً في حد ذاته، ولكن ينبغي للإنسان أن يكسب الدنيا غير مقصر في ذكر الله تعالى وفعل الخيرات.

ثم فصّلت السورة مبادئ الخير وأصوله، وأخبرت أن منكري القرآن حين يسمعون هذه المبادئ يعرضون عنها استكباراً، غافلين عن مصيرهم، بدلاً من أن يتدبروا فيها، وإذا ذكروا بالمصير فلا يبالون كذلك، ولذا فإن مناهضي القرآن - سواء أكانوا من الخارج أو الداخل - سوف يلقون عقاباً شديداً من الله تعالى.

سيحلّ بالدنيا عند اقتراب القيامة، أي في زمن المسيح الموعود، عذاب شديد لتكذيب الناس القرآن الكريم، وستقع عندئذ حرب أخرى بين الملائكة وإبليس سينتصر فيها أتباع آدم.

ثم أوضح الله تعالى لرسوله ﷺ أن القوم يريدون تدميرك، ولكننا قد قدرنا لك غاية عظمى: سنديع صيتك إلى أرجاء العالم حتى آخر الأزمان، وسنكشف كفاءاتك للدنيا قاطبةً.

ثم بيّن ﷺ أننا قد جعلنا القرآن لينفع إلى أبد الأبد، وسوف نكشف به الخزائن الروحانية شيئاً فشيئاً، لأن الله تعالى ليس ببخيل. وفي الختام ذكر الله تعالى علامات الزمن الأخير وفتنه، مذكراً أن الدعاء هو الوسيلة للوقاية من تلك الشرور والفتن.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ  
الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ  
لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

شرح الكلمات:

سبحان: "سبحان الله" .. أي أبرئ الله من السوء براءة (الأقرب).

أَسْرَى: أسراه وبه: سيّره بالليل. (راجع للمزيد شرح الآية رقم ٦٦ من سورة الحجر)  
عَبْدٌ: العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها  
إلا مَنْ له غاية الإفضال وهو الله. والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير وعبادة  
بالاختيار. والعبد يُقال على أربعة أضرب: الأول عبدٌ بحكم الشرع، وهو  
الإنسان الذي يصح بيعه وابتاعه (وجمعُه عبيدٌ)، والثاني عبد بالإيجاد، وذلك  
ليس إلا لله، والثالث عبدٌ بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان: عبدٌ لله  
مخلصًا (أي العابد وجمعُه عباد)، وعبدٌ للدنيا وأعراضها (المفردات).

المسجد الحرام: الكعبة (الأقرب).

الأقصى: اسم تفضيل من قضا يقصو المكان وقصبي يقصى: بُعد، فالأقصى هو  
الأبعد وجمعُه الأقاصي (الأقرب). فالمسجد الأقصى يعني المسجد البعيد.

التفسير: إن هذه الآية هي من تلك الآيات الهامة التي تضاربت الآراء في  
تفسيرها تضاربًا كبيرًا، وتقول الأغلبية العظمى من المفسرين والعلماء، القدامى  
منهم والمعاصرين، بأنها تتكلم عن حادثة المعراج النبوي، وإن كانت الروايات  
حول تفاصيل المعراج تختلف فيما بينها اختلافًا كبيرًا. وقد بلغت هذه القضية،

بسبب تضارب الأحاديث والروايات، من التعقيد والإشكال بحيث إنني سأضطر لتقسيمها إلى عدة أجزاء حتى تتضح الحقيقة.

فأولاً وقبل كل شيء أوضح لكم أن حادث المعراج المذكور في مكان آخر من القرآن الكريم أيضاً، وذلك في سورة النجم حيث قال الله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۖ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۖ أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۖ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَغْشَىٰ السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۖ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۖ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم: ٥ - ١٩)

تشير هذه الآيات إلى المعراج النبوي الشريف، والدليل على ذلك هو أن كل ما ورد فيها يتعلق بحادث المعراج. ويُستخلص من هذه الآيات ما يلي:

- ١- وصول النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى
- ٢- غشيان شيء ما سدرة المنتهى أثناء ذلك
- ٣- رؤيته ﷺ الجنة عندها
- ٤- وصوله ﷺ إلى حالة وصفها قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾
- ٥- رؤيته ﷺ البارئ تعالى
- ٦- نزول الوحي عليه ﷺ.

وكل هذه الأمور المذكورة في الروايات التي تصف حادث المعراج. وإليكم

بيانها:

- ١- وصول النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى: فهناك رواية عن أبي هريرة ؓ وقد سجلها كل من هؤلاء المحدثين الستة في كتبهم: ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبزار، وأبو يعلى، والبيهقي. وقد ورد فيها أن النبي بعد أن وصل إلى السماء ليلة المعراج وقابل الأنبياء انتهى إلى السدرة. (الخصائص الكبرى ج ١ باب

خصوصيته ﷺ)

وهناك رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري قد نقلها كل من ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن العساكر، وتؤكد هذه الرواية ذهاب النبي ﷺ إلى السماء، ولقائه بالأنبياء هناك، ثم وصوله إلى سدره المنتهى. (المرجع السابق)

وفي رواية أخرى عن مالك ابن صعصعة: "ثم رُفعتُ إلى سدره المنتهى". (البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة؛ مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله؛ مسند أحمد: مسند الأنصار، وابن جرير)

ثم هناك رواية في البخاري عن أبي ذرٍّ تذكر ذهابه ﷺ إلى السماء ولقائه الأنبياء، ووصوله إلى سدره المنتهى. (البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة) ٢- غشيان شيء ما السدره حينذاك: وهذا أيضاً مسجّل في أحاديث المعراج. فقد ورد في الرواية المشار إليها أعلاه أن النبي ﷺ قال: "فَعَشِيَهَا نُورُ الْخَلْقِ ﷻ" (الخصائص الكبرى). كما ورد: "فلما غشيتها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها" (مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ).

٣- رؤية النبي ﷺ الجنة عند سدره المنتهى: وهذا أيضاً مذكور في أحاديث المعراج حيث ورد في رواية لأبي سعيد الخدري نقلها العديد من المحدثين أنه ﷺ قال: "ثم إني رُفعتُ إلى الجنة"، وذلك بعد لقائه بالأنبياء الآخرين. (الخصائص الكبرى ص ١٦٥).

٤- برؤية هذه المشاهد طرأت على النبي ﷺ حالة وصفها الله بقوله ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. وروايات المعراج تؤكد هذا الأمر أيضاً، فورد في رواية أبي سعيد الخدري المذكورة أعلاه أن النبي ﷺ قال: بعد وصولي إلى سدره المنتهى "كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى". (المرجع السابق ص ١٦٩)



علمًا أنني لست هنا بصدد شرح هذه الأحاديث، وإنما أريد التأكيد أن الأحاديث الواردة في وصف المعراج تذكر نفس المشاهد المذكورة في سورة النجم.

٥- رؤية النبي ﷺ البارئ تعالى، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾. وقد ورد هذا المعنى في روايات عديدة عن المعراج، حيث نقل ابن مردويه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: "سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو يصف سدرة المنتهى... فقلت: يا رسول الله، ما رأيتَ عندها؟ قال: رأيتُ عندها يعني ربّه." (المرجع السابق ص ١٧٧).

وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أفتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾: "رآه بفؤاده مرتين". (مسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قوله تعالى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)

٦- كلام الله تعالى مع النبي ﷺ عند سدرة المنتهى كما هو ظاهر من قوله تعالى ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، وهذا أيضًا مسجّل في أحاديث المعراج، فقد نقلنا آنفًا رواية عن أبي هريرة تقول إن النبي ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى "فكلمه الله تعالى عند ذلك" (الخصائص الكبرى ص ١٥٥). كذلك نقل ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قول الرسول ﷺ إني لما وصلت إلى سدرة المنتهى "قال الله لي: يا محمد". (المرجع السابق ص ١٥٥)

لقد ثبت بذلك أن الحادث الذي تشير إليه سورة النجم إنما هو حادث المعراج نفسه.

والآن أورد الأدلة على أن سورة النجم قد نزلت بعد السنة الخامسة من النبوة أو قبل ذلك بقليل. فهناك حادث شهير ذو صلة وثيقة بهذه السورة يحدد زمن نزولها بما لا يدع مجالاً للشك، وذلك أن النبي ﷺ لما رأى أن اضطهاد الكفار المكيين لأصحابه قد بلغ المنتهى أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، حيث قال لهم مشيرًا إلى جهة الغرب: هناك بلد لا يُظلم فيه أحد. فخرج بعض

صحابته قاصدين الحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة من النبوة، وكان فيهم سيدنا عثمان بزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ (الطبقات الكبرى: هجرة الحبشة). ولما علمت قريش بذلك خرجت على آثار الصحابة، ولكنهم ركبوا السفن قبل أن يدركهم الكافرون، وعبروا البحر إلى أرض الحبشة، وعاشوا هناك بأمان. ولما بلغ الكفار ذلك بعثوا إلى النجاشي ملك الحبشة وفداً مكوّناً من عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة ليسألاه تسليم المسلمين اللاحقين للمكيين، ولكن الملك رفض طلبهم، فرجع الوفد خائباً خاسراً.

ثم بعد ذلك جاء النبي ﷺ ذات يوم في نادي الكفار وقرأ عليهم سورة النجم، وفيها أمرٌ بالسجود، ولما سجد النبي ﷺ سجدوا التلاوة سجد معه الكفار كلهم، فأشيع بين الناس أن أهل مكة كلهم، أو أعيانها على الأقل، قد أسلموا. وقال الكفار فيما بعد تبريراً لسجودهم أن محمداً كان مدح آلهتهم أثناء قراءته سورة النجم، فسجدوا معه.

وقد قال بعض المفسرين بأن الشيطان هو الذي قال هذه الكلمات في مدح آلهة الكفار، وليس الرسول ﷺ.

ولكن بحثي يؤكد أن ما حدث في الحقيقة هو أن الكفار لما يتسوا من استرداد المسلمين المهاجرين من الحبشة أشاعوا في أرض الحبشة كذباً أن أهل مكة قد أسلموا جميعاً، وذلك ليعود المهاجرون. فلما عاد المسلمون المهاجرون خاف الكفار أن المهاجرين إذا اقتربوا من مكة وعرفوا كذب الخبر فرموا يهودون على أدراجهم إلى الحبشة، فلجأوا إلى مكيدة أخرى حيث أتوا النبي ﷺ وطلبوا إليه أن يُسمعهم القرآن الكريم، ثم سجدوا معه أثناء التلاوة، لكي يشيع خبر سجدتهم بين الناس، فيسمعه المسلمون المهاجرون فلا يعودوا إلى مهجرهم. وبعد أن حقق الكفار غرضهم هذا قالوا لأتباعهم كذباً وتخفيفاً من العار الذي لحقهم: لقد سجدنا مع محمد لأنه أتني على آلهتنا.

هذا هو تعليقي باختصار على حادث السجود، ولكننا لسنا في صدد نقاشه الآن، وإنما محله في تفسير سورة الحج وسورة النجم إن شاء الله تعالى. وأعود الآن إلى ما كنت بصدده فأقول: إنه لم يمضِ على هجرة هؤلاء المسلمين إلى الحبشة ثلاثة أشهر حتى سمعوا خبر إسلام المكيين، فعاد بعضهم إلى مكة (المرجع السابق). وقد سجلتُ كتبُ التاريخ والحديث كلها هذا الحادث، مما يشكّل دليلاً قاطعاً على أن سورة النجم قد نزلت قبل شهر شوال من السنة الخامسة النبوية، وبما أن حادث المعراج مسجل في هذه السورة فثبت أن المعراج أيضاً كان قد وقع قبل شوال من السنة الخامسة النبوية.

أما الآن فأعود إلى حادث الإسراء المذكور في هذه السورة التي نحن بصدده تفسيرها. لقد ورد في التاريخ أن الإسراء وقع في ربيع الأول أو الثاني أو رجب أو شعبان من السنة الحادية عشرة النبوية (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: وقت الإسراء). أما المستشرقون المسيحيون فأيضاً يعترفون أن الإسراء وقع في السنة الثانية عشرة النبوية. (حياة محمد للسير ولیم ميور ص ١٢٥)

كما أن روايات كتب الحديث أيضاً تحدد حادث الإسراء في زمن قريب من ذلك، حيث أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: "أسري بالنبى صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة" (الخصائص الكبرى ص ١٦١). كما أخرج البيهقي عن ابن شهاب قال: "أسري بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة" (المرجع السابق ص ١٦٢). وأيضاً أخرج البيهقي عن السدي أنه أسري بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل مهاجره بحوالي ستة أشهر. كما نقل ابن سعد عن أم سلمة أن حادث الإسراء وقع قبل الهجرة بسنة في السابعة عشرة من شهر ربيع الأول.

إذن فكل هذه الروايات تجزم بأن الإسراء وقع قبل الهجرة بستة أشهر أو سنة. وهناك دليل آخر على وقوع الإسراء بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم من شعب أبي طالب - علماً أن الكافرين حاصروا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في شعب أبي طالب في

السنة السابعة، ورفعوا هذا الحصار في السنة العاشرة (الطبقات الكبرى لابن سعد: ذكرُ حصر قريشٍ رسولَ الله ﷺ وبني هاشم في الشعب) - هناك شاهد واحد للإسراء وهو أم هانئ بنت عم النبي أبي طالب، فهي تقول: لقد بات النبي ﷺ في بيتها ليلة أُسريَ به. وقد وثق قولها هذا كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين (الخصائص الكبرى ص ١٧٧). والبديهي أن النبي ﷺ ما كان ليبيت في بيت أم هانئ في حياة خديجة أو حياة أبي طالب، مما يعني أن حادث الإسراء حصل بعد وفاة خديجة وأبي طالب. ويخبرنا التاريخ أنهما تُوفيا بعد السنة العاشرة النبوية (السيرة النبوية لابن هشام: وفاة أبي طالب). فهذه شهادة تاريخية أخرى على صحة رأيي؟

فخلاصة الكلام أن التاريخ والحديث والعقل كل أولئك تؤكد أن حادث الإسراء قد وقع بعد السنة الحادية أو الثانية عشرة النبوية. وأما حادث المعراج فقد أثبت قبل قليل أنه حصل بعد السنة الخامسة النبوية. فما دام الحادثان تفصلهما فترة زمنية لا تقل عن ست أو سبع سنوات فكيف يمكن اعتبارهما حادثاً واحداً؟ إذن فإن المعراج غيرُ الإسراء الذي زار فيه النبي ﷺ بيت المقدس. وبالإضافة إلى الشواهد التاريخية هناك أمر آخر يؤيد استنتاجي هذا، وهو أن الروايات تؤكد أن الصلوات قد فرضت في المعراج. فلو ظننا أن المعراج والإسراء حادث واحد لاضطررنا إلى القول أن الصلوات الخمس لم تُفرض إلا بعد السنة الحادية أو الثانية عشرة من البعثة، وهو قول باطل بالبداية، لأنها فرضت في أوائل البعثة، وذلك بحسب إجماع المسلمين كافةً (البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء). فثبت من ذلك أيضاً أن المعراج تم في أوائل البعثة، بينما وقع الإسراء في السنة الحادية أو الثانية عشرة بعد البعثة.

بل أقول إن القرآن قد أشار إلى معراجين اثنين، ليدل على أن المعراج المذكور في سورة النجم هو ثاني المعراجين. والحق أن المعراج الأول كان في أوائل البعثة النبوية أو بعده بقليل، وفيه فرضت الصلوات. فقد نقل ابن جرير في تفسيره

حدث المعراج في رواية تقول: "جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه." (البخاري: التوحيد). وتحكي الرواية نفس الأحداث التي وقعت في المعراج، ولكنها لا تذكر ذهاب النبي ﷺ إلى القدس بل إلى السماء رأساً، وأخيراً تذكر حدث فرضية الصلوات. ويتبين من هذا الحديث أن حدث المعراج حصل قبيل مبعث النبي ﷺ أو لدى بعثته، ومعظم المحققين ذهبوا إلى أن ذلك الحادث لم يقع قبل البعثة بل حصل لدى البعثة، وأن الراوي أخطأ بسبب قرب الزمن. وأنا أيضاً أؤيد رأي هؤلاء المحققين، لأن الصلوات فرضت في بداية الإسلام، إذ لم تمض سنة واحدة في الإسلام لم تكن فيها الصلاة، كما أن فرضية الصلوات قبل البعثة أمر مخالف للعقل.

وأوجز القول مرة أخرى فأقول: إن الإسراء والمعراج حادثان منفصلان، وأن المعراج تم مرتين كما هو ظاهر من آيات سورة النجم، وكما تؤكد الأحاديث أيضاً، حيث ورد فيها أن أول المعراجين حصل في أوائل البعثة، ويمكن أن نقول إنه في ذلك المعراج نفسه وُضع الأساس للنبوة التشريعية أي التي فيها أحكام وأوامر، حيث فرضت فيه الصلوات. أما المعراج الثاني فتم في السنة الخامسة بعد البعثة، أو يمكن أن نقول إن المعراج الثاني أيضاً حصل قبل ذلك ولكنه ذكر في سورة النجم. وأما الإسراء فهو حادث منفصل تماماً عن المعراج حيث وقع في السنة الحادية أو الثانية عشرة بعد البعثة حين كانت زوجة النبي السيدة خديجة رضي الله عنها قد تُوفيت، وكان النبي ﷺ يبيت في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، كما هو ثابت من الأحاديث المتواترة والروايات التاريخية.

بعد سرد الأدلة المسجلة في كتب التاريخ أتناول الآن الشهادات الواقعية التي تدل على كون الإسراء والمعراج حادثين منفصلين.

الشهادة الأولى - وهي من القرآن الكريم نفسه الذي سجل حادث المعراج في سورة النجم، ولكن دون أي إشارة إلى ذهاب النبي ﷺ إلى بيت المقدس. وعلى النقيض قد ذكر القرآن في سورة الإسراء صراحة ذهاب النبي ﷺ إلى القدس،

ولكن دون الإشارة إلى صعوده إلى السماء. مما يوضح جلياً أن الحادثين منفصلان، ولذلك لم ير القرآن أية حاجة إلى ذكرهما معاً. وإلا أفليس عجيباً أن يسجل القرآن في المرة الأولى الجزء الأخير من الحادث الواحد، ثم بعد مضي ست سنوات يذكر الجزء الأول من الحادث نفسه!؟

الشهادة الثانية - إن أول شاهد على حادث الإسراء هو أم هانئ حيث بات النبي ﷺ في بيتها ليلة أُسريَ به. وتقول أم هانئ إن النبي ﷺ أخبرني بحادث إسرائه إلى بيت المقدس قبل أي شخص آخر، "ثم قام ليخرج، فقلت: لا تحدث هذا الناس فيكذبوك ويؤذوك. فقال: والله لأحدثنهم، فأخبرهم" (الخصائص الكبرى ص ٢٧٩). وهناك سبعة من المحدثين على الأقل الذين نقلوا قول هذا الشاهد الأول أم هانئ، وبرواية عن أربعة أشخاص مختلفين؛ وكل هذه الروايات إنما تشير إلى ذهابه ﷺ إلى القدس ثم رجوعه منها. فلو أن النبي ﷺ كان أخبر أم هانئ عن ذهابه إلى السماء من القدس لتكلمت عن ذلك في مناسبة من المناسبات، ولكنها في كل مرة قالت إن النبي ﷺ أخبرني بأنه ذهب إلى القدس ورجع منها. مما يؤكد أن حادث إسرائه ﷺ إلى القدس مختلف عن حادث معراجه إلى السماء.

الشهادة الثالثة - إن من الرواة من يذكر ذهاب النبي ﷺ إلى السماء مباشرة دون ذهابه إلى القدس، ومنهم من يذكر ذهابه ﷺ أولاً إلى القدس ثم من هناك إلى السماء، ومنهم من قال بذهابه إلى القدس دون أي ذكر لصعوده إلى السماء، ولكن عديداً من الرواة صرحوا أن النبي ﷺ رجع من القدس إلى مكة المكرمة.

والظاهر أن القائلين بصعود النبي ﷺ إلى السماء رأساً أيضاً قد شهدوا على كون المعراج حادثاً منفصلاً عن الإسراء، لأن القدس لا تقع في الطريق إلى السماء. وأصحاب هذه الرواية هم أنس ومالك بن صعصعة وأبو ذر. مع العلم أن أبا ذر كان من الصحابة الذين أسلموا في أوائل الدعوة، وكان ممن سمع عن هذا الحادث في أول أمره.

أما الذين قالوا بذهابه ﷺ إلى القدس دون أي ذكرٍ لصعوده بعد ذلك إلى السماء فقد أكدوا بشهادتهم هذه أيضاً أنه فيما يتعلق بحادث الإسراء فإن النبي ﷺ لم يذهب فيه إلى السماء، إذ كيف يمكن أن يكون النبي قد صعد في حادث الإسراء إلى السماء وتكلم مع الله وتشرف برؤيته ﷻ، ومع ذلك لا يتحدث هؤلاء عن أبرز وقائعه هذه. وأصحاب هذه الشهادة هم أنس وعبد الله بن مسعود، وهذا الأخير أيضاً من السابقين إلى الإسلام، وكان في صحبة النبي ﷺ على الدوام.

أما أصحاب القول الثالث بأنه ﷺ ذهب إلى القدس ورجع منها فقد شككوا دليلاً واضحاً على أنه لم يتم في الإسراء إلى القدس أي صعود إلى السماء، وإنما أُسريَ به ﷺ إلى القدس فقط. وأصحاب هذه الرواية هم عبد الله بن مسعود وابن عباس وشداد بن أوس وأم هانئ وعائشة وأم سلمة - رضوان الله عليهم أجمعين. ولقد تحدثت آنفاً عن مقام ابن مسعود، وأما عبد الله بن عباس فهو ابن عم النبي ﷺ العباس، وهكذا تصير شهادته من القوة بمكان لكونه فرداً من العائلة النبوية. وأما عائشة وأم سلمة فهما من الزوجات المطهرات، وبالتالي كانتا من أفضل الشاهدين على الحادث. وأما أم هانئ فهي التي وقع حادث الإسراء في بيتها والتي حكى لها النبي ﷺ هذا الحادث قبل أي إنسان آخر. (راجع: البخاري: كتاب الصلاة والمناسك والأنبياء؛ ومسلم: كتاب الإيمان؛ والخصائص الكبرى ص ١٥٤ إلى ١٥٩ و١٧٦ إلى ١٧٩؛ والإصابة: باب الكنى، حرف الذال والعين)

ولا يسع المجال لذكر جميع الروايات في هذا الشأن غير أنني أتناول بعضها فيما يلي:

أولاً- تقول أم هانئ: لما صلّى النبي ﷺ الصبح قال لي: "يا أمّ هانئ، لقد صليتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئتُ بيتَ المقدس فصليتُ فيه، ثم صليتُ صلاةَ الغداة معكم الآن كما تَرين". (الخصائص الكبرى ص ١٧٧)

ثانياً- تروي السيدة عائشة رضی الله عنها: "لما أُسريَ بالنبی ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك. فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك: أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة." (المرجع السابق ص ١٧٦)

فهذه الرواية تؤكد أيضاً أن النبي ﷺ لم يذهب إلى السماء في حادث الإسراء، وإلا لما استطاع أبو بكر تقديم الدليل الذي أفحم المعترضين، لأن نزول الوحي من السماء ليس أكثر غرابة من صعود أحد إليها وعودته منها. فلو كان النبي ﷺ قد ذهب في الإسراء إلى السماء لرد الكافرون على أبي بكر بأن سيدك يزعم أنه صعد إلى السماء وأنت تتحدث عن نزول الوحي منها! ولكنهم لم يردوا عليه بجواب كهذا، مما يبين أن النبي ﷺ أخبرهم بذهابه إلى القدس فقط ولم يقل لهم إنه صعد إلى السماء أيضاً.

ثالثاً- أما رواية عبد الله بن مسعود فتذكر صلاة النبي ﷺ بالأنبياء الآخرين في المسجد الأقصى ثم تقول: "ثم انصرفنا فأقبلنا" (المرجع السابق ص ١٦٢). الشهادة الرابعة: على كون الإسراء غير المعراج هي أن بعض الروايات التي تذكر ذهاب النبي ﷺ إلى القدس أولاً ثم إلى السماء تذكر أيضاً أنه بعد هبوطه من السماء مرّ بالقدس مرة أخرى عائداً إلى مكة (الخصائص الكبرى، رواية أنس، ص ١٥٤ و ١٥٥).

إن العاقل يمكن أن يدرك سبب مرور النبي ﷺ بالقدس وهو في طريقه إلى السماء، لأن الهدف في ذلك أن يصلي في المكان الذي قام أنبياء كثيرون بتبليغ رسالات الله إلى سكانه، ولكن لا يمكن أن يفهم العاقل ضرورة مروره ﷺ بالقدس وهو عائد إلى مكة بعد هبوطه ﷺ من السماء! كان الأمر مفهوماً لو



كانت هناك في القدس مهمة من المهام لم يستطع ﷺ القيام بها وقت الذهاب، فيقال: لقد أتى به مرة أخرى عند العودة لينجز تلك المهمة الباقية، ولكن لم يرد في أي رواية أن النبي ﷺ قام بأي عمل في القدس لدى العودة! فما الداعي إذاً لتكبد مشقة المرور بالقدس مرة أخرى؟ هل الطريق إلى السماء يمر بالقدس فقط؟ وهل هناك في القدس سلّم إلى السماء حتى يقال أن الله تعالى اضطر للذهاب بالنبي ﷺ إلى القدس لينزل من هناك بذلك السلم؟ كلا، لا أحد من المسلمين يعتقد بهذا، لأن الصعود إلى السماء لا يتم بالسلم. فثبت أن ذهابه ﷺ إلى القدس أولاً - لدى العودة من السماء - ثم مجيئه من القدس إلى مكة أمرٌ غير معقول.

وأرى أن هناك سبيلاً واحداً فقط لتأويل هذه الرواية وهو أن أنساً ﷺ ذكر للناس حادث الإسراء إلى القدس وحادث المعراج إلى السماء، فاختلط الأمر على بعض الرواة، فظنهما حادثاً واحداً، ولكنه وعى جيداً أن أنساً ذكر - لدى الحديث عن حادث الإسراء - أن النبي ﷺ ذهب إلى القدس ورجع منها أيضاً، فظن - أي السامع من أنس - أنه ﷺ في حادث المعراج نزل من السماء بالقدس، ومن ثم ذهب إلى مكة.

هنا ينشأ سؤال: كيف يمكن أن يقع هذا الخلط كله؟ وجوابه أن كلمة الإسراء تُطلق في اللغة العربية على السير ليلاً سواء كان السير على سطح الأرض أم إلى السماء (الأقرب). ولأن كلتا الحادثتين، أي الإسراء إلى القدس والمعراج إلى السماء، قد وقعتا بالليل فأطلق عليهما الناس لفظ "الإسراء".

كما أن هناك عدة أمور مماثلة وقعت في كلا الحادثتين، مثل البراق، ولقائه ﷺ بالأنبياء، وصلاته بهم، ورؤيته مشاهد من الجنة والجحيم. إذن فهناك تشابه بين الحادثتين من حيث الأسماء والأعمال والمشاهد الروحانية العجيبة، مما أدى إلى خلط الحادثتين في أذهان بعض الرواة، فظنوهما حادثاً واحداً ورووه للآخرين طبقاً لهذا الظن الخاطيء. غير أن ذوي الذاكرة القوية من الرواة عندما تحدثوا عن

"المعراج إلى السماء" قالوا: ثم أُسريَ بالنبِيِّ ﷺ من بيته إلى السماء، وعندما تحدثوا عن "الإسراء إلى القدس" اكتفوا بقولهم: أُسري به ﷺ إلى القدس، ولم يذكروا بعد ذلك شيئاً عن صعوده إلى السماء.

والدليل على إطلاق الصحابة - رضي الله عنهم - كلمة "الإسراء" على الحادثين موجودٌ في الأحاديث الشريفة حيث ورد في رواية: "عن أنس بن مالك أن مالك بن صعصعة حدثه أن نبيَّ الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسريَ به، قال: بيْنَا أنا في الحطيم - وربما قال قتادة: في الحجر - مضطجعُ إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه: الأوسطُ بينَ الثلاثة. قال: فأتاني... فشقق ما بينَ هذه إلى هذه... من نُعرةٍ نُحره إلى شعرتِه... فاستخرج قلبي. فأتيتُ بطستٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً وحكمة. فغُسلَ قلبي ثم حُشيتُ ثم أُعيد. ثم أتيتُ بدابةٍ دُونَ البُعْلِ وفوقَ الحمار... يقعَ خطوُه عندَ أقصى طرْفِه. قال: فحملتُ عليه، فانطلقَ بي جبريلُ ﷺ حتى أتى بي السماءَ الدنيا...". (مسند أحمد، مسند الشاميين ج ٤ ص ٢٠٨،

البخاري: كتاب المناقب باب المعراج؛ ومسلم: كتاب الإيمان باب الإسراء؛ والخصائص الكبرى ص ١٦٥) وهناك رواية مماثلة عن أنس بأن النبي ﷺ أُسري به من الكعبة إلى السماء رأساً (البخاري: التوحيد، والخصائص الكبرى ص ١٥٣). فيبدو من ظاهر كلمات الروائتين أنهم يتحدثون فيهما عن حادثة الإسراء، ولكن كل الوقائع المذكورة فيهما هي نفس ما حدث في المعراج إلى السماء، ولا ذكر فيهما لذهابه إلى القدس، وإنما ذكر ذهابه إلى السماء رأساً. مما يعني أن الصحابة كانوا يستخدمون أحياناً كلمة "الإسراء" وهم يقصدون بها حادث المعراج. كما نجد أنهم يستخدمون كلمة الإسراء نفسها وهم يعنون بها ذهابه ﷺ إلى القدس فقط، وذلك كما حصل في رواية جابر بن عبد الله (البخاري: التفسير؛ ومسلم: الإيمان؛ والخصائص الكبرى ص ١٥٧ و١٥٨)، وأيضاً كما حصل في رواية شداد بن أوس التي نقلها الطبراني والبيهقي وغيرهما. (المرجع السابق ص ١٥٨ و١٥٩)

فثبت من هذه الروايات بنوعيتها أن الصحابة كانوا يستعملون كلمة "الإسراء" للحادثين. وبسبب هذا الاستعمال وبسبب اشتراك الحادثين في بعض الأسماء والأمور كان من السهل جداً أن يخطئ بعض الرواة فيظنوا الحادثين حادثاً واحداً، مما أدى إلى الخلط بين روايات الحادثين، فظن الذين أتوا بعدهم أن هذه التفاصيل إنما هي لحادث واحد فقط.

كما أن النظرة الفاحصة في الروايات تؤكد وجود الخلط فيها. فمثلاً ورد في الروايات التي تذكر ذهابه ﷺ إلى السماء مروراً بالقدس أنه لقي في القدس آدم وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، ولكن هذه الروايات نفسها تقول إنه ﷺ صعد بعد ذلك ورأى هؤلاء الأنبياء في السماوات المختلفة، ولكنه لم يستطع أن يعرفهم! فإذا كان هذان اللقاءان قد حصلتا في حادث واحد فكيف وصل هؤلاء إلى السماوات المختلفة قبل النبي ﷺ؟ ثم كيف لم يتمكن النبي من معرفتهم وقد رأهم في القدس قبل قليل؟ إن هذا اللغز سيظل غير مفهوم، إلا إذا قلنا إن اللقاءين حصلتا في حادثين مختلفين بينهما فاصل زمني، لذلك لم يستطع النبي ﷺ أن يعرفهم لدى اللقاء الثاني. إذن فهذه الشهادة الداخلية أيضاً تؤكد أن بعض الرواة خلطوا بين تفاصيل الحادثين المختلفين.

وإن آراء بعض الأسلاف أيضاً تدعم موقفي هذا حيث ورد: "ذهب كثيرون إلى أن الإسراء وقع مرتين، وجمع بذلك بين اختلاف الواقع في الأحاديث. وممن اختار هذا القول أبو نصر القشيري وابن العربي والسهيلي." (الخصائص الكبرى:

فوائد في تعداد الإسراء ص ١٨٠ و ١٨١)

وأتناول الآن حادث الإسراء بشيء من التفصيل. أرى أن رواية أنس التي نقلها ابن جرير في تفسيره ترسم لنا أدق وأصح صورة للإسراء، حيث ورد: "عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبرئيل ﷺ بالبراق إلى رسول الله ﷺ ضربت بذنبها، فقال لها جبرئيل: مه يا براق! فوالله إن ركبك مثله. فسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز ناء عن الطريق أي على جنب الطريق، فقال: ما هذه يا جبرئيل؟

قال: سرُّ يا محمد. فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوهُ متنحياً عن الطريق يقول: هلمَّ يا محمد، قال جبرئيل: سرُّ يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير. قال: ثم لقيه خلقٌ من الخلائق، فقال أحدهم: السلام عليك يا أول، والسلام عليك يا آخر، والسلام عليك يا حاشر! فقال له جبرئيل: ارُدِّد السلام يا محمد. قال: فردَّ السلام. ثم لقيه الثاني، فقال له مثل مقالة الأولين، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء واللبن والخمر، فتناول رسولُ الله ﷺ اللبن. فقال له جبرئيل: أصبتَ يا محمد الفطرة، ولو شربتَ الماء لغرقتَ وغرقتَ أمُّتك، ولو شربتَ الخمرَ لغويتَ وغوتَ أمُّتك. ثم بعثَ له آدمُ فمَن دونه من الأنبياء. فأَمَّهُم رسولُ الله ﷺ تلك الليلة.

ثم قال له جبرئيل: أما العجوز التي رأيتَ على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا بقدر ما بقي من عمر تلك العجوز. وأما الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدوُّ الله إبليسُ.. أراد أن تميل إليه. وأما الذي سلّموا عليك فذلك إبراهيم وموسى وعيسى". (تفسير ابن جرير الطبري)

هذه الرواية قد نقلها ابن كثير في تفسيره وعلّق عليها قائلاً: "وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن وهب. وفي بعض ألفاظه نكارةٌ وغرابة. طريقٌ أخرى عن أنس ابن مالك، وفيها غرابة ونكارةٌ جدًّا، وهي في سنن النسائي الجتبي، ولم أرها في الكبير."\*

وهذه الرواية لابن جرير يمكن أن تساعدنا على السير في الطريق السليم في هذا البحث، لأنها - عندي - أصدق الروايات وأصحها.

هناك خطأ واحد في هذه الرواية وهو أنها تذكر أنه عرض على النبي ﷺ أولاً الماء ثم اللبن ثم الخمر، ولكن الترتيب الصحيح هو: الماء ثم الخمر ثم اللبن، كما ذكره ابن كثير في تفسيره؛ وسوف أبين بعد قليل أهمية تصحيح هذا الخطأ

\* علمًا أن المراد من "النسائي الجتبي" هو مختصر سنن النسائي، ومن "الكبير" هو "سنن النسائي". (المترجم)

البسيط، أما الآن فأريد التأكيد أن المراجع الأخرى أيضاً قد سجلت المشروبات بالترتيب الذي أراه صحيحاً. فقد أخرج الطبراني وابن مردويه عن صهيب بن سنان قال: لما عُرض على رسول الله ﷺ ليلة أُسريَ به الماءُ ثم الخمرُ ثم اللبنُ أخذَ اللبنُ" (الخصائص الكبرى ج ١ باب خصوصيته ﷺ الإسراء، حديث صهيب ص ١٥٩).

والرواية الواردة في "الدر المنثور" أيضاً تدعم الترتيب الذي ذكره ابن كثير، لأن الترتيب الوارد فيها هو: الماء والخمر واللبن.

إذن فبناءً على هذه الشواهد كلها يمكن أن نجزم بأن الرواية التي نقلها ابن جرير كانت في الأصل بالترتيب الصحيح، ولكن في بعض النسخ حصل هذا الخطأ من سهو الكاتب.

إن رواية ابن جرير هي أصح الروايات، لأن محتوياتها تشكل شهادة داخلية على صحتها. اقرأوها مرة أخرى لتجدوا أن كل ما ورد فيها من وقائع وأحداث جاء في تناسق وانسجام، وأن التأويلات التي ذكرها جبريل واضحة تماماً ومدعمة من قبل القرآن الكريم.

وعلى سبيل المثال، أول جبريل الماء بحطام الدنيا، وهذا حق، فإن الماء ينوب عن الدنيا، لأن به الحياة، كما قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ (الأنبياء: ٣١).

وقال جبريل: "لو شربت الخمر لغويتَ وغوتَ أمتك". وهذا أيضاً حق، لأن الخمر رمز للأعمال الشيطانية لقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩١).

وحين تناول رسول الله ﷺ اللبن قال له جبريل: "أصبت يا محمد الفطرة"، ذلك لأن اللبن يتكون في ثدي الأم، ويكون خالصاً من أية شوائب، لذا يدل على الفطرة الصحيحة.

ثم لاحظوا روعة الترتيب والتناسق بين ما عُرض على النبي ﷺ من مشروبات وبين من قبله في الطريق. فأول من مر به النبي ﷺ هي العجوز التي عبرها جبريل

بالدنيا، وكذلك أول ما عُرض عليه هو الماء الذي عبّره جبريل أيضاً بحطام الدنيا، وهذا هو ما يعلنه القرآن الكريم أيضاً في قول الله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ﴾ (الكهف: ٤٦).

ثم بعد العجوز رأى النبي ﷺ في طريقه الشيطان، وبالترتيب نفسه عُرض عليه الخمر بعد الماء، ذلك تبيانا بأن الخمر تدفع شاربها إلى الغواية مثل الشيطان. وآخر ما رآه النبي ﷺ جماعة من الأنبياء الذين سلّموا عليه أي دعوا له بالسلامة، وبالمثل عُرض عليه ﷺ في آخر الأمر اللبن، وكان إشارةً إلى أن أمته ﷺ ستحظى دائماً بالعلوم الروحانية، وستنجو من الدمار.

فكل ما في هذه الرواية من ترتيب جميل محكم وتعبيرات صحيحة رائعة يدل على أن راويها لا بد أن يكون قد سمع هذا الخبر من رسول الله ﷺ. والآن أبين لكم مغزى الإسراء بناءً على ما فهمته من القرآن الكريم والعلوم الروحانية.

إن الإسراء، في رأيي، كان كشفًا من الكشوف اللطيفة، وإليكم أدلتي: الدليل الأول: هو رواية أنس رضي الله عنه التي أفضلها على باقي الروايات من حيث التفصيل. فقد جاء فيها أن النبي ﷺ رأى في الطريق عجوزًا، ثم شيئًا يدعوها متنحياً عن الطريق، ثم خلقًا من الخلائق، وبعد ذلك عُرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول اللبن، ثم قام جبريل عليه السلام بتأويل هذه الأحداث كلها.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا لم يكن الإسراء كشفًا من الكشوف فلماذا قام جبريل بهذه التأويلات؟ وإذا كان النبي ﷺ قد أُسري بجسده المادي فلماذا رأى الدنيا على شكل عجوز؟ وهل في القرآن أو الحديث أن الدنيا امرأة عجوز في الحقيقة؟ فرؤية النبي ﷺ الدنيا على صورة عجوز تدل صراحةً على أن الإسراء كان كشفًا من الكشوف الروحانية اللطيفة، وإلا لقال النبي ﷺ لجبريل على الفور: لماذا تتكلف وتلجأ إلى التأويل، فقد رأيتُ هذه العجوز بأمر عيني

الجسمانية آفأ؛ فهل يحتاج ما يُرى بالعين إلى تأويل؟ ولكننا نجد النبي ﷺ قد لزم الصمت على تأويل جبريل لهذه المناظر، مما يوضح أنه اعتبر هذا الحدث كشفاً. ثم إن فرحة جبريل على رفض النبي ﷺ الماء أيضاً تؤكد كون الإسراء كشفاً من الكشوف، إذ لو كانت رحلته هذه بجسده المادي فلماذا تغرق أمته نتيجة شربه ﷺ الماء وقد كان يشرب الماء في حياته دائماً؟ فما الضمان إذاً لنجاة أمته من الغرق وقد شرب الماء آلاف المرات في حياته المادية؟!

الدليل الثاني: إن القرآن الكريم أيضاً قد سَمَّى هذا الحادث رؤيا كما قال الله تعالى في هذه السورة نفسها: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦١)، مما حدا بعدديد من الصحابة والعلماء الأسلاف على اعتبار الإسراء رؤيا من الرؤى. فقد "أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة" (الدر المنثور). وهو أيضاً مذهب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. (السيرة النبوية لابن هشام: \* ذكر الإسراء، ومختصر زاد المعاد: فصل في الإسراء ص ٢٠٣)

الدليل الثالث: قولُ النبي ﷺ: لما أخبرتُ الناسَ بذهابي إلى القدس سألوني أن أصفَها لهم، وكنت لا أعلم من معالها شيئاً، فترددت في وصفها. فلو كان النبي ﷺ قد زار القدس زيارة ظاهرة لما تردد في وصفها. فقد ورد أن النبي ﷺ قال: "لما كذبتني قريش حين أُسري بي إلى بيت المقدس، قمتُ في الحجر، فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه." (البخاري: كتاب التفسير، باب قوله أسرى بعبده ليلاً)

فهذا الحديث أيضاً يؤكد كون الإسراء كشفاً، حيث فكر النبي ﷺ لدى سؤالهم أن ما رآه من مناظر القدس ربما لا يكون مطابقاً للواقع الظاهر، ولذلك تردد في وصفها، ولكن بما أن موجة المعارضة والاستهزاء من قبل الكفار كانت

\* ورد في السيرة النبوية لابن هشام: "قال ابن إسحاق: وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت تقول: ما فقدتُ جسداً رسول الله ﷺ، ولكن الله أسرى بروحه." (المترجم)

على أشدها لدى سماعهم هذا الخبر لذلك قرر الله تعالى أن يكشف لنبيه معالم القدس على صورتها الظاهرة أيضاً، فرآها النبي مرة أخرى رؤيةً كشفٍ، فجعل يصفها لهم. فصدّقه من كانوا على معرفة بمعالم القدس. وقد قال بعض المتعصبين من الكتّاب النصارى تعليقاً على هذا بأن خرائط القدس كانت متيسرة في زمن محمد، وربما استعان بها محمد في وصفه لمعاملها. (تفسير القرآن لـ "ويري")

وأقول: قد تكون خريطة القدس متيسرة حينذاك، ولكن هل يوجد بين هؤلاء المتعصبين من يستطيع أن يجيب هكذا على أسئلة الناس عن مدينة من المدن مستعيناً بخرائطها فقط دون أن يزورها؟!

وجدير بالذكر أنه مما لا شك فيه أن القرآن الكريم قد استخدم للإسراء كلمة الرؤيا، ولكن يجب أن لا ينخدع بذلك أحد فيظنها كالأحلام والرؤى العادية. فإن "الرؤيا" بلغتنا الأردية تطلق فقط على ما يراه النائم من مناظر ومشاهد، ولكنها في العربية تطلق على الحلم وكذلك على الكشف الروحاني. والكشف هو غير الحلم العادي، ولا يراه الإنسان في النوم، وإنما يراه ما بين النوم واليقظة.. أي في حالة شبه غيبوبة حين لا يكون نائماً، وإنما تكون حواسه الظاهرة نشيطة في عملها، بل أحياناً يرى الإنسان الكشف وهو يحاور صاحبه. وكشوف الأنبياء أكثر لطافة وشفافية من كشوف الآخرين، لأنهم يستطيعون أن يروا بعيونهم الكشفية ما يقع بالضبط في أماكن نائية للغاية.

واعلم أن الكشف ثلاثة:

١- ما تكون مناظره مطابقةً للواقع المادي، تماماً كما يرى الإنسان بالمرقب الأشياء البعيدة.

٢- ما يكون بعض مناظره مطابقاً للواقع المادي، وبعضه يتطلب التأويل.

٣- ما تحتاج كل مناظره إلى التأويل.



وإن ما رآه النبي ﷺ في الإسراء كان من النوع الثاني. فبعض ما رآه من مشاهد كان مطابقاً للواقع المادي، بينما كان بعضه يتطلب التأويل. وقد سبق أن تحدثت بالتفصيل عما كان بحاجة إلى التأويل. أما المناظر التي كانت طبقاً للواقع المادي فمنها - كما ورد في الحديث - أن النبي ﷺ قال للسائلين: مررت عند العودة بقافلة لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بغيراً لهم. ولما وصلت تلك القافلة مكة أكدوا أنهم بالفعل كانوا ضلوا بغيراً لهم في ذلك اليوم نفسه وفي المكان نفسه (الخصائص الكبرى: حديث شداد بن أوس ص ١٥٩)

علماً أنني صاحب خبرة بالكشوف، بفضل الله تعالى، ولم أقل ما قلت إلا بناءً على خبراتي الشخصية.

وأبين الآن الغرض من كشف الإسراء هذا.

أرى أن هذه الرحلة الكشفية إلى القدس كانت تتضمن نبأً عن الهجرة النبوية إلى المدينة، وأن رؤية النبي ﷺ المسجد الأقصى كانت إشارة إلى بناء المسجد النبوي الذي قدر له أن ينال تعظيماً وتكريماً أكثر من المسجد الأقصى. وأما صلاته ﷺ بالأنبياء الآخرين إماماً لهم فكانت بشارةً بأن دعوته لن تبقى منحصرة في العرب وحدهم، بل ستمتد إلى الشعوب الأخرى، وستدخل أمم الأنبياء الآخرين في الإسلام، وأن هذا الانتشار سيتم بعد الهجرة. كما كان هذا نبأً بأن النبي ﷺ سينال الحكم على القدس، حيث ورد في كتب تعبير الرؤى: "وتدل رؤية كل مسجد على جهته والتوجه إليها كالمسجد الأقصى والمسجد الحرام ومسجد دمشق ومسجد مصر وما شاكل ذلك. وربما دلت على علماء جهاتهم أو ملوكهم أو نواب ملوكهم". (تعطير الأنام كلمة المسجد).

وسأتناول الآن كلاً من هذه المعاني واحداً بعد الآخر، لأبين كيف أنها قد تحققت كلها لصالح النبي ﷺ.

**المعنى الأول-** لقد قلت آنفاً إن المراد من المسجد الأقصى في هذه الرؤيا هو المسجد النبوي، وأن القدس تعني المدينة المنورة، وأن سفره ﷺ إلى القدس يعني هجرته إلى المدينة.

لقد بدأ الله تعالى ذكر هذه الرؤيا بقوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ ليشير إلى أن الهجرة ستُجلى سبوحية الله أي براءته من العيوب والنقائص كليةً. فكلمة ﴿سبحان﴾ أيضاً تبين أن هذه الرؤيا انطوت على نبأ، ذلك أن رؤية بيت المقدس في الظاهر لا تؤكد سبوحية الله، ولكن الهجرة إلى المدينة ساعدت على قيام الدولة الإسلامية التي حققت كثيراً من الأنباء الواردة في القرآن الكريم، مما دل على سبوحية الله تعالى. فبقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أشار إلى أنه سيذهب بعبدته إلى المسجد الأقصى أي إلى مسجد مماثل له، لكي تتحقق تلك الأنباء التي لا بد لتحققها من الهجرة، فترى الدنيا كيف أنه ﷺ أنجز ما وعد به في القرآن من الأنباء المتعلقة بالجهاد والقتال وقيام الدولة الإسلامية وغيرها مما كان متوقفاً على الهجرة.

ثم إن قوله تعالى ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أيضاً يدل على أن هذه الرؤيا تشير إلى سفر ستجلى فيه آيات إلهية خاصة. ولا غرو أن الهجرة هي السفر الذي كشف الستار عن مستقبل مشرق للإسلام كان خافياً على الدنيا من قبل.

كما أن قوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أيضاً يدعم موقفي، لأن رؤية القدس في الكشف وحدها ليست دليلاً على كون الله سمياً بصيراً، ولكن هجرة المدينة قد جلّت هذا المعنى أيما جلاء. لقد دلت الهجرة على أن الله سميع.. حيث تبين بها أن الله تعالى يسمع ويستجيب دعاء عباده، ودلت على أنه تعالى بصير.. حيث تحققت للمسلمين الانتصارات التي وعدوا بها بعد الهجرة. كما دلت حماية الله للمؤمنين إثر الهجرة على أن هناك إلهاً يبصر بالعباد ويحفظهم.

وكانت رؤيته ﷺ المسجد النبوي على شكل المسجد الأقصى والمدينة على صورة القدس تتضمن الإشارة إلى أن مسجده ومدينته ﷺ سيبارك فيهما كما بورك في الأقصى والقدس.

وربما يقال هنا: لماذا لم يُشَبَّه المسجد النبوي بالمسجد الحرام بدلاً من الأقصى؟ والجواب أولاً: إن المسجد الحرام ينفرد - دون جميع المساجد حتى المسجد الأقصى والمسجد النبوي - بخصوصيات تتعلق بشعائر الحج. وثانياً: كان الهدف من رؤية النبي ﷺ المسجد الأقصى إعلانه أن تلك المنطقة ستقع في أيدي المسلمين، وهذا الهدف ما كان ليتحقق برؤيته المسجد الحرام. فبما أن كشف اسم المهجر النبوي صراحةً لم يكن أمراً حكيماً بسبب الأوضاع السياسية السائدة حينذاك فرمز الله ﷻ لنبيه هنا بالمسجد الأقصى إلى المسجد النبوي وبالقدس إلى المدينة المنورة.

وتحقق هذا النبأ في حق المسجد النبوي ظاهر مما روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول ومسجد الأقصى." (البخاري: كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة) فالمسجد الأقصى قد شُبه هنا بالمسجد النبوي، وبتأسيس المسجد النبوي تحقق نبأ أداء النبي ﷺ الصلاة في المسجد الأقصى.

وكان في رؤيا الإسراء نبأ آخر يتعلق ببركة المدينة المنورة، وهو المشار إليه في قوله تعالى ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾.. و﴿حَوْلَهُ﴾ يعني ما حول الأقصى وهو مدينة القدس. وطبقاً لهذا النبأ بارك الله فيما حول المسجد النبوي أيضاً.. أي في المدينة المنورة. وإليكم الأدلة على ذلك:

١- ورد في الحديث: "عن أنس عن النبي ﷺ قال: اللهم اجعلْ بالمدينة ضعفي ما جعلته بمكة من البركة." (البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث)

٢- وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: "اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحبنا مكةَ أو أشدَّ. اللهم بارِكْ لنا في صاعنا ومُدَّنَا" (المرجع السابق). وقوله ﷺ: "بارِكْ في صاعنا ومُدَّنَا" يعني أن يبارك الله في زراعة أهل المدينة وتجارهم.

٣- و"عن زيد بن عاصم أن رسول الله ﷺ قال: إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمتُ المدينةَ كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوتُ في صاعها ومُدَّها بمثلِّي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة." (مسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة)

علمًا أن الدعاء للمدينة هنا كان من أجل البركة المادية، أما من حيث البركة الروحانية فإن مكة هي الأفضل بين سائر المدن بدون شك.

لقد تبينَ من هذه الأحاديث كلها أن المسجد الأقصى الذي بورك حوله والذي رآه النبي ﷺ في الرؤيا كان المقصود منه المسجد النبوي، إذ لم تُؤتِ القدسُ حتى عُشرَ ما أُوتيت المدينة المنورة من البركة.

وهناك رواية لعائشة رضي الله عنها توضح لنا كيف بارك الله في المدينة بركة ظاهرة حيث قالت: قبلَ مقدم النبي ﷺ إلى المدينة كان وباء الحمى يتفشى فيها بكثرة، ولذلك كانت تسمى "يثرب" أي البكاء والعويل، فنجَّاه الله ﷻ من هذا الوباء ببركة دعاء نبيه ﷺ، فسَمَّاهَا المدينة (البخاري: فضائل المدينة).

كما ورد في كشف الإسرائ أنه ﷺ صَلَّى بالأنبياء في المسجد الأقصى. وهذا النبأ لم يتحقق إلا بعد هجرته ﷺ إلى المدينة، حيث كانت المدينة نقطة انطلاق دعوة الإسلام إلى كل بقاع العالم؛ بل الواقع أن ازدهار الإسلام لم يتوقف إلا بعد أن نُقلت عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة. لقد حقق الإسلام في الثلاثين عامًا - التي كانت فيها مدينة الرسول عاصمة للدولة الإسلامية - من الانتشار والازدهار ما لم يحققه في ثلاثة عشر قرناً!

وقد يقال هنا أن النبي ﷺ قد خص المدينة بهذه الخصوصيات والبركات من عند نفسه! والجواب: ليس بوسع الإنسان أن يمنح البركات. متى يقدر الإنسان على

أن يدي. بمثل هذه الأنباء ثم يحققها أيضاً؟ الحق أن ما دعا به النبي ﷺ للمدينة كان بمثابة تصديق منه لما نبأه الله به من قبل.

وجدير بالانتباه أن قوله تعالى ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ يشير إلى أن عبد الله هذا لم يخرج في هذه الرحلة الليلية بخياره، بل الله نفسه قد سيره. وهذا بالضبط ما حدث في الهجرة أيضاً حين خرج النبي ﷺ من مكة تحت ستار الليل، ولم يغادرها برغبته، وإنما اضطر للخروج منها حين حاصر الكفار بيته لاغتياله. إذن فلم تكن الهجرة برغبته ﷺ، بل إن المشيئة الإلهية هي التي دفعته للهجرة.

ثم كما أن جبريل صاحب النبي ﷺ في إسرائه إلى القدس، كذلك رافق أبو بكر الرسول ﷺ أثناء الهجرة، وكان متفانياً في طاعته كما يطيع جبريل أوامر الله تعالى. وكلمة جبريل تعني "بطل الله"، وكذلك كان أبو بكر عبداً مختاراً لله تعالى، وبطلاً مغواراً في سبيل دينه.

**المعنى الثاني-** وقد قلت أيضاً إن رؤية المسجد الأقصى تعني أيضاً مسجد بني إسرائيل (أو المعبد الإسرائيلي) بالقدس، والمراد أن الله تعالى سيجعل نبيه ﷺ غالباً على ذلك البلد أيضاً. ولقد تحقق هذا النبأ أيضاً حين وقعت القدس في أيدي المسلمين في عهد ثاني خلفاء الرسول ﷺ، واستمر حكمهم عليها ثلاثة عشر قرناً. لقد استولى عليها الآن المسيحيون، ولكنه استيلاء مؤقت، وقد تم أيضاً بحسب نبأ من أنباء الله تعالى، وسوف تعود القدس - عاجلاً أو آجلاً - إلى أيدي أتباع الرسول ﷺ مرة أخرى.

ونظراً إلى هذا المعنى، كان المراد من قوله تعالى ﴿لَيْلًا﴾ أن فتح القدس لن يتم بقوة الحروب المادية، وإنما ببركة تلك الرؤيا التي رآها النبي ﷺ ليلاً. وهذا ما حدث بالضبط، إذ متى كان جندُ العرب القليلُ العدد والعتاد قادراً على الصمود أمام جيوش إمبراطور عظيم كقيصر، وإنما هو وحي الله النازل ليلة الإسراء الذي

جعل جيشَ قيصرِ العرمرمَ والخبيرَ بفتون الحرب والقتال يفرُّ أمامَ العربِ العديمي العدة والعتاد فرارَ الحمير من الأسد.

وقد يعترض أحد ويقول: لم تُفتح القدس في زمن النبي ﷺ وإنما في عهد عمر؟ والجواب: أن أتباع النبي أيضاً يكونون مشمولين في الأنبياء التي يدلي بها. وهناك أمثلة كثيرة لذلك في الإسلام وفي كتب الأنبياء الذين حلوا من قبل.

**المعنى الثالث-** لقد أحييتُ أن رؤية المسجد في المنام تدل على علماء المنطقة التي فيها المسجد. وطبقاً لهذا النبأ نجد أن المسلمين لم يحققوا الغلبة السياسية على القدس فحسب، بل إن معظم سكان تلك البلاد دخلوا في الإسلام، ولم تنزل القدس مركزاً لعلماء المسلمين طيلة ثلاثة عشر قرناً. والظاهر أنه لم يكن بوسع إنسان أن يحدث هذا الانقلاب، بل إن الله هو الذي فعل ما فعل.

والغريب أن النار التي رآها موسى ﷺ أثناء أحد أسفاره قد وصفها القرآن الكريم بكلمات مماثلة حيث قال الله تعالى ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٩). فترى أن كلمات ﴿بورك﴾ و﴿من حوله﴾ و﴿سبحان﴾ تماثل الكلمات الواردة هنا في سورة الإسراء.

علماً أن البعض يقول أن المقصود من النار هو الله تعالى (القرطبي)، ولكن هذا خطأ، لأن الآية تقول ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾، والله تعالى يبارك ولا يبارك. فالحق أن النار هنا لا تعني الله، وإنما تعني لوعة حب الله تعالى؛ والمراد أن الذي يلقي نفسه في نار حب الله يبارك. وتشبيه الحب بالنار شائع في لغات العالم كلها.

الحق أن المكان الذي يُظهر الله فيه جلاله توضع فيه البركة، وتتجلى فيه سبوحية الله تعالى؛ وإلى هذا السر الروحاني يشير كل من إسراء النبي ﷺ وحادث رؤية موسى ﷺ النار.

وهناك حادث آخر لموسى ﷺ مشابهٌ للإسراء النبوي وقد ذكر في السورة اللاحقة أعني "الكهف"، وسأبين أوجه التشابه هذه لدى تفسير سورة الكهف.

هذا، وأرى أن كشف الإسراء يشير إلى رحلة نبوية روحانية أخرى أيضاً. فقد أخبر الله ﷻ في هذا الكشف أنه سيأتي على أهل الإسلام عصر الظلام، وسيبعث الله عندها رسوله محمداً ﷺ مرة أخرى في شخص أحد من خدامه المطيعين له، ليكون مناراً للهدى في ذلك العصر المظلم كالليل، ولينال المسلمون بواسطته نفس البركات التي نالها أنبياء بني إسرائيل وأتباعهم. وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في سورة الجمعة أيضاً حيث قال ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ \* وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٣-٤).. أي أن النبي ﷺ سوف يعلم الدين جماعةً أخرى لم تلحق بعد بالمسلمين، بل ستظهر في المستقبل. وذلك ليس بمستبعد على الله تعالى، لأنه العزيز الحكيم.. أي أنه لن يدع أمة المصطفى ﷺ لتهلك هكذا، بل لا بد أن يبعثه لإصلاحهم بعثةً روحانيةً.

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْأَلَّا

تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

هُدًى: هداه الطريق وإليه وله: بينه له وعرفه به. هدى فلاناً: تقدمه، تقول: جاءت الخيل يهديها فرسٌ أشقر.. أي يتقدمها. هداه الله إلى الإيمان أي أرشده إليه. (الأقرب)

بني إسرائيل: إسرائيل لقبٌ ليعقوب عليه السلام (تكوين ٣٢: ٢٨). وبنو إسرائيل هم نسله.

دوني: راجع لشرح كلمة "دون" الآية رقم ٨٧ من سورة النحل.

وكيلاً: الوكيل: فعيلٌ بمعنى مفعول لأنه موكول إليه، وقد يكون للجمع والأنثى؛ ويكون بمعنى فاعل إذا كان بمعنى الحافظ، ووُصف به اللهُ تعالى، وقيل: الكافي الرازق (الأقرب).

التفسير: تبدأ هذه الآية بذكر موسى وقومه العَلِيِّينَ. وهناك أكثر من رابط يربط هذه الآية بما قبلها، وإليكم بيان ذلك:

١- في الآية السابقة وعد الله نبيه ﷺ وأُمَّته بأنه سيعطيهم القدس. وقد سبق أن منح الله موسى وقومه هذه البلدة وما حولها تحقيقاً لوعده منه ﷺ، ولكن قوم موسى خالفوا وصايا الله تعالى، فحُرموا من الأرض المقدسة. فالله تعالى يحذّر هنا المسلمين بذكر الأمة الموسوية بأننا سنعطيكُم الخيرَ من ميراث أمة موسى، فحذّر أن ترثوا منها شرّ الميراث أيضاً، فتهلكوا.

٢- كان في ختام سورة النحل نبأ المواجهة بين المسلمين واليهود حيث نصّحهم الله تعالى أن يجادلوا اليهود بالتي هي أحسن لأهم أهل كتاب.. أي أن يناقشوهم على ضوء مبادئهم ومعتقداتهم وبناءً على الأدلة المستقاة من كتبهم، وأما هنا في سورة الإسراء فقد وضح ﷺ للمسلمين أسلوب النقاش مع أهل الكتاب بذكر مثال عملي، حيث عرض على اليهود أنباءً من كتابهم تحذّرهم بأنهم سيفسدون فيتعرضون للعذاب. كما حذّر اليهود هنا أنه ليس أمامهم الآن إلا سبيل وحيد للازدهار مرة أخرى وهو أن يدخلوا مع الله في هذا الميثاق الجديد ليرفع عنهم العذاب. فإذا كانت الأرض المقدسة قد ضاعت من أيديهم بصفتهم أمةً يهودية فيامكانهم أن يدخلوها مرة أخرى بصفتهم مسلمين.



## ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٤٥﴾

شرح الكلمات:

ذرية: الذرية أصلها الصغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف، ويُستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع (المفردات).  
شكوراً: صيغة المبالغة من الشكر. شكره وشكر له: أثني عليه بما أولاه من المعروف (الأقرب).

التفسير: أي بعد أن أنزلنا لهم الكتاب على موسى قلنا لهم: يا أولاد أصحاب نوح، كان جدُّكم نوحٌ عبداً جديداً شاكر لربه، فكونوا كجدِّكم شاكرين لله تعالى.

لقد قال بعض المفسرين أن الخطاب هنا يتعلق بعصر النبي ﷺ أي موجّه إلى قومه (فتح البيان)، ولكني أراه متعلقاً بزمن موسى ﷺ وموجّهًا إلى قومه؛ لأن الآية التالية أيضاً تتحدث عن هؤلاء، حيث نبّه الله تعالى بني إسرائيل أننا كما نجّينا نوحاً من الطوفان فقد أنجيناكم من البحر، فكونوا عبداً شاكرين لنا كما كان نوح وأصحابه.

كما أن هذه الآية تحذير من الله للمسلمين بأننا سننجيكم من طوفان المعارضة والعداء الذي سيحاصركم عما قريب، فعليكم أن تشكرونا ولا تنتكروا لنا. والفرق بين الأمتين أن قوم موسى ﷺ تنكروا لنعم الله تعالى، ولكن أصحاب الرسول ﷺ ضربوا مثلاً رائعاً عديم النظير في الشكر لله تعالى، وإن كان المسلمون الذين أتوا فيما بعد أيضاً تنكروا لنعم الله تعالى، وفي واقع الأمر قد جاءت هذه الآية تحذيراً لهؤلاء المسلمين.

## وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴿٦٦﴾

### شرح الكلمات:

**قَضَيْنَا:** قضى الشيء: أعلمه وبيّنه (الأقرب). راجع لمزيد التفصيل شرح الآية رقم ٦٦ من سورة الحجر.

**لَتَعْلُنَّ:** علا الشيء: ارتفع. علا فلان في الأرض: تكبر وتجبّر. علا فلاناً: غلبه وقهره. علا فلاناً بالسيف: ضربه. علا المكان: صعده: علا في المكارم: شرف (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿ولتعلمن﴾ أنكم ستتكبرون وتتجبرون حتماً.

**التفسير:** يحذر الله تعالى هنا المسلمين بأن رسولكم مثيل لموسى، وتحققاً لهذه المماثلة سوف نعطيهِ القدس وما حولها؛ فحذارٍ أن يحصل معكم فيما بعد ما حصل بقوم موسى بني إسرائيل. لقد حذرناهم سلفاً أنهم سيعيثون في الأرض فساداً، ويرتكبون ضد الناس مظالم بشعة مرتين، وعقاباً على جرائمهم سوف ندمّرهم أيضاً مرتين. مع العلم أن عقابهم لم يُذكر هنا صراحة، ولكنه مذكور في الآية التالية بكل وضوح.

أما قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ فيؤكّد أمرين: الأول أن الكتاب هنا هو كتاب موسى عليه السلام، والثاني أن كتابه سبق أن أنبأ عن طغيان بني إسرائيل مرتين، ثم تعرّضهم لعذاب الله.

لقد وقع المفسرون القدامى والمعاصرون في خطأين لدى تفسير هذه الآية حيث اكتفت جماعة منهم بذكر بعض الأحداث التاريخية عن هلاك بني إسرائيل (القرطي، والقاسمي)، دون أية إشارة إلى ما يوجد في أسفار أهل الكتاب من الأنبياء عن فسادهم وهلاكهم التي أشار إليها القرآن الكريم هنا، مما حال دون انكشاف صدق الوحي القرآني كما ينبغي. أما المفسرون الذين حاولوا ذكر تلك الأنبياء

من أسفار أهل الكتاب (فتح البيان، والبحر المحيط).. فلم ينتبهوا إلى أن الكتاب المشار إليه في قوله تعالى ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ هو كتاب موسى دون الأسفار الأخرى. أما أنا فقد راعيتُ في تفسيري الأمرين كليهما، فنقلتُ هذه الأنباء من كتاب موسى عليه السلام، مع تسجيل الأحداث التاريخية التي تحققت بها هذه الأنباء.

وإليكم ما ورد في كتاب موسى عليه السلام من نبأ عن فساد بني إسرائيل وبغيهم على الناس: "ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم.. تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدرِكك". (تشية ٢٨ : ١٥)

ثم أسهب في تفصيل هذه اللعنات وقال: "يذهب بك الرب وبملكك الذي تقيمه عليك إلى أمة لم تعرفها أنت ولا آباؤك". (المرجع السابق الفقرة ٣٦).

ويضيف: "يجلب الرب عليك أمة من بعيد من أقصاء الأرض كما يطير النسْر.. أمة لا تفهم لسانها.. أمة جافية الوجه لا تهاب الشيخ ولا تحن إلى الولد؛ فتأكل ثمرة بهائمك وثمرة أرضك حتى تهلك، ولا تُبقي لك قمحاً ولا خمرًا ولا زيتًا ولا نتاج بقرك ولا إناث غنمك، حتى تُفنيك. وتحاصرک في جميع أبوابك حتى تهب أسوارك الشاخنة الحصينة التي أنت تثق بها في كل أرضك. تحاصرک في جميع أبوابك في كل أرضك التي يعطيك الرب إلهك. فتأكل ثمرة بطنك، لحم بنيك وبناتك الذين أعطاك الرب إلهك في الحصار والضيقة التي يضايقك بها عدوك. الرجل المتنعم فيك والمترفه جدًا تبخل عينه على أخيه وامرأة حُضنه وبقية أولاده الذين يُبقيهم.. بأن يعطي أحدهم من لحم بنيه الذي يأكله، لأنه لم يبق له شيء في الحصار والضيقة التي يضايقك بها عدوك في جميع أبوابك. والمرأة المتسعمة فيك والمترفه التي لم تجرب أن تضع أسفل قدمها على الأرض للتنعم والترفه تبخل عينها على رجل حُضنها وعلى ابنها وبناتها". (المرجع السابق الفقرات

ثم يقول: "وكما فرح الربُّ لكم ليحسن إليكم ويكثركم كذلك يفرح الربُّ لكم ليُفنيكم ويُهلككم، فُتستأصلون من الأرض التي أنت داخلٌ إليها لتمتلكها. ويبددك الربُّ في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها، وتعبد هناك آلهةً أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من خشب وحجر". (المرجع السابق الفقرات ٦٣ و٦٤) مع العلم أن هذا النبأ يتعلق بفساد اليهود ودمارهم في أولى المرتين المذكورتين في قوله تعالى ﴿لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾.

وأما قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ...﴾ فيعني أن الله تعالى كان حذرهم في وحيه من المصيبة التي كانت تنتظرهم، ولكنهم لم يأخذوا حذرهم منها.

واعلم أن التحذير يهدف إلى أمرين؛ الأول: أن يحاول الإنسان التجنب من الخطر الذي يحدق به، والثاني: أن تقام عليه الحجة إذا لم يسع للنجاة. ولقد حذر النبي ﷺ أيضاً أمته قائلاً: "لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ" (البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من قبلكم)، وفي رواية: لتتبعن اليهود والنصارى؛ ولكن المؤسف أن المسلمين أيضاً استهانوا بهذا الإنذار النبوي فوقعوا فرسى لهذه الآفة.

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ

شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

أُولِي بَأْسٍ: أولو هو جمع بمعنى ذوو، لا واحد له، وقيل: اسم جمع واحد ذو كالغنم واحد شاة (الأقرب). والبأس: العذاب؛ الشدة في الحرب (الأقرب).  
جَاسُوا: جاس الشيء يجوس جوساً: طلبه بالاستقصاء، ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾: داروا فيها بالعيث والفساد. وفسره الجوهري بقوله: أي تخللوا فطلبوا ما فيه كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها (الأقرب).

**الديار:** جمعُ الدار، وهو: المحلُّ؛ العَرَصَةُ؛ البلدُ. وخلال الديار أي ما حوالي حدودها وما بين بيوتها (الأقرب).

**التفسير:** يفصلُ اللهُ ﷻ هنا كيفيةَ تحققِ النبأِ المتعلقِ بالدمارِ الأولِ ويقول: لما حان هذا الدمارُ سلطنا عليكم، يا بني إسرائيل، قومًا محاربين، فاقتحموا عليكم بيوتكم ودمروكم.

والخرابان المشار إليهما في هذه الآية وما بعدها قد ذكرهما القرآن الكريم في موضع آخر حيث قال ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ٧٩). فتوضح هذه الآية أن العذاب حل بهم مرتين: مرةً بعد عهد داود، ومرةً أخرى بعد زمن عيسى عليهما السلام.

وما ورد في التوراة عن هذا الدمار الأول هو أن اليهود ما زالوا بعد موسى في الرقي والازدهار حتى قويت شوكتهم، وقامت لهم دولة قوية في زمن داود استمرت بعده لمدة من الزمان. ثم دبَّ فيها الفساد فأخذت في الاضمحلال شيئاً فشيئاً، حتى قضى عليها الأشوريون الذين كانت عاصمتهم نينوى. فصار اليهود يؤدون لهم الخراج. ثم هزم الأشوريين أميرٌ مصري اسمه "نيكو" (NECHO)، وانتزع منهم الحكم، فصار اليهود يعيشون تحت حكم المصريين. ثم قبل المسيح بحوالي ٦٠٠ عام وبعد داود بحوالي ٤٠٠ عام حذر الله اليهودَ على مفسادهم بواسطة إرميا الذي تبَّههم أنهم لو تابوا الآن فسوف يُلغى اللهُ وعيد الجلاء، ولكنهم لم يرتدعوا (انظر إرميا ٧: ٢-٧)

وأخيراً سلَّط اللهُ ﷻ عليهم البابليين، وقد ورد ذكر هذا العذاب في سفر الملوك الثاني كالآتي: جاء نبُوخَذْنَصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ هو وكلُّ جيشه على أورشليم وحاصرها، وطال الحصار؛ وكان ذلك في عهد الملكِ صِدْقِيَّا. ولما اشتدَّ الجوع في المدينة تُغرتُ، وهربَ جميعُ رجالِ القتالِ ليلاً من أحدِ الأبواب. وهرب الملك ولكنهُ أُسر، فقتلوا أبناءه أمامه، ثم قلعوا عينيه هو، وذهبوا به إلى بابل مقيداً

بالأصفاد. ثم أرسل الملك البابلي أحد قواده نبوزرآدان إلى أورشليم، فأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء.. أحرقتها بالنار. وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط. وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة الهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرآدان رئيس الشرط. (انظر الملوك الثاني ٢٥: ١-١١)

ويتضح من سفر نحemia أن من أكبر أسباب هذا الدمار انتهاك اليهود حرمة السبت حيث جاء: "فخاصمت عظماء يهوذا وقلت لهم: ما هذا الأمر القبيح الذي تعملونه وتدثسون يوم السبت؟ ألم يفعل آبائكم هكذا، فجلب إلهاً علينا كل هذا الشر وعلى هذه المدينة؟ وأنتم تزيدون غضباً على إسرائيل إذ تدثسون السبت." (نحميا ١٣: ١٧ و ١٨)

كذلك حذر النبي حزقيال اليهود حينها، فقال لهم وهو يعدد عليهم معاصيهم: "ازدريت أقداسي ونجست سبوتي" (حزقيال ٢٢: ٨). وورد فيه أيضاً: "نجست مقدسي في ذلك اليوم ودثست سبوتي." (حزقيال ٢٣: ٣٨)

لقد ركزت هنا خاصة على ذكر ما يتعلق بمخالفة اليهود السبت لأن هذه الآية التي تتحدث عن عذاب شديد إنما تشير إلى قول الله تعالى في سورة النحل ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (الآية: ١٢٥).. أي أن عذاب السبت إنما نزل على الذين اختلفوا في كلام الله تعالى وأسأوا إلى دينه.

ولا شك أن هذه الآية تشكل برهاناً ساطعاً على وجود ترتيب رائع في مواضع القرآن الكريم، فبالرغم من أن سورة الإسراء أسبق نزولاً من سورة النحل وأن مكانها في المصحف جاء بعد سورة النحل، إلا أن مواضعها تتلاءم مع مواضع سورة النحل بحيث يبدو وكأن سورة الإسراء قد نزلت بعد سورة النحل، وأنها تكملة لها، وترد على الأسئلة التي نشأت فيها.

ويقول التاريخ إنه في زمن ضعف دولة اليهود هجم عليهم الأشوريون وانتزعوا منهم الحكم وأخضعوهم لسلطانهم. ولكن بعد فترة جاء أحد الملوك

المصريين وهو فرعون نيكو (Pharaoh Necho)، فقضى على حكم الأشوريين، ووقعت فلسطين في أيدي المصريين، وجعل الملك المصري على أرض فلسطين الياقيم Eliakim (ابن يُوشيا)، الذي حَرَفُوا اسمه إلى "يهويقيم". ولما رأى الملك البابلي دمار المملكة الأشورية المجاورة له بعث ابنه نبوخذنصر (Nebuchadnezzar) لمحاربة الملك المصري نيكو، فقام بغزو مصر، وهكذا خضعت فلسطين لسلطان البابليين. ولكن الملك الفلسطيني "يهويقيم" كان يكنّ الولاة لمصر، فأرسل نبوخذنصر قائده نبوزرآدم لمعاقبة "يهويقيم" في ٥٨٧ قبل الميلاد، ولكن "يهويقيم" مات قبل وصول الجيش البابلي إليه. وأما ابنه "يهويكين" (Jehoichin) فلم يستطع الصمود أمام البابليين، وطلب منهم العفو عنه. فأخذوه إلى بابل، وجعل الملك البابلي على فلسطين صدقياً (Zed chiah) - واسمه الحقيقي متنياه (Mattaniah) وهو أخو يهويقيم - ولكنه أيضاً انحاز إلى الملك المصري حوفرا (Hophra). فقام البابليون بمحاصرة العاصمة الفلسطينية سنة ٥٨٨ قبل الميلاد، وتمكنوا من صدع سورها بعد سنتين، فلاذ صدقيا بالفرار، ولكنه أُسر وأُخذ إلى بابل بأمر الملك البابلي. وقام البابليون بحرق الأماكن المقدسة اليهودية، وهدموا سور العاصمة، ودمروها تدميراً.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

الكَرَّةُ: كَرَّ الفارسُ كَرًّا: فَرَّ للجَوْلَانِ ثم عادَ للقتال. الكَرَّةُ: المَرَّةُ؛ الحَمْلَةُ في الحرب (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أننا أعطيناكم من جديد قوةً المهجوم عليهم.

نغيراً: النفيرُ النَّفْرُ لما دون العشرة من الرجال؛ القومُ يَنْفِرُونَ معك ويتنافرون في القتال؛ وقيل: هم الجماعة يتقدمون في الأمر (انظر الأقرب، واللسان).  
التفسير: يقول الله تعالى إنا بعد ذلك الدمار نجيناكم من قبضة العدو، وآتيناكم القوة مرة أخرى.

وقد حصل حين زحف ملك فارس وميديا على بابل، فناصره بنو إسرائيل بأمر من نبي لهم، فحرّره الملك الفارسي من أسر البابليين. (وقد سبق أن سجّلتُ هذا الحادث مفصّلاً في تفسير سورة البقرة لدى ذكر سليمان عليه السلام وهاروت وماروت).

وقد سبق أن نبأ موسى عليه السلام عن غلبة اليهود مرة أخرى بالكلمات التالية:  
"ومتى أتت عليك كل هذه الأمور.. البركة واللجنة اللتان جعلتهما قدامك.. فإن رددت في قلبك بين جميع الأمم الذين طردك الربُّ إلهك إليهم، ورجعت إلى الرب إلهك، وسمعت لصوته حسب كل ما أنا أوصيك به اليوم.. أنت وبنوك بكل قلبك وبكل نفسك.. يردُّ الربُّ إلهك سبيك ويرحمك، ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بددك إليهم الربُّ إلهك. إن يكن قد بددك إلى أقصاء السماوات فمن هناك يجمعك الرب إلهك، ومن هناك يأخذك ويأتي بك الرب إلهك إلى الأرض التي امتلكها آباؤك فتمتلكها، ويحسن إليك، ويكثرك أكثر من آباءك." (تثنية ٣٠: ١-٥)

يتضح من ذلك أن موسى عليه السلام قد نبأ بعودة الأمور ثانية إلى مجراها بعد الدمار الأول لبني إسرائيل، كما تؤكد ذلك هذه الآية القرآنية التي نحن بصدد تفسيرها. وتفصيل هذه العودة أن الملك الفارسي - واسمه كورش، ويسمى بالإنجليزية (Cyrus) - بعد أن قام بغزو بابل سمح لليهود عام ٤٤٥ ق م بالعودة من منفاهم إلى القدس جزاءً على مساعدتهم له ضد الملك البابلي. وليس هذا فحسب، بل أرسل معهم نبيهم نحميا لتعمير القدس وغيرها من الأماكن المقدسة اليهودية من



جديد. كما أعطاهم ممتلكاتهم التي سلبها وأخذها نبوخذنصر البابلي معه حين غزا القدس. (عزرا ١: ١-٨)

وعزرا هذا هو نفس النبي الذي ذكره القرآن باسم عزير، والذي قال عنه اليهود ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾.

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ<sup>ط</sup> وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا<sup>ج</sup> فَإِذَا جَاءَ  
وَعْدُ<sup>ط</sup> الْآخِرَةِ لِيَسْئَرُوا<sup>ط</sup> وُجُوهَكُمْ<sup>ط</sup> وَلِيَدْخُلُوا<sup>ط</sup> الْمَسْجِدَ  
كَمَا دَخَلُوهُ<sup>ط</sup> أَوَّلَ<sup>ط</sup> مَرَّةٍ<sup>ط</sup> وَلِيُتَبَّرُوا<sup>ط</sup> مَا عَلَوْا<sup>ط</sup> تَتَبِيرًا<sup>ط</sup>

### شرح الكلمات:

لِيَسْئَرُوا: ساءه يسوءه سوءاً: فعل به ما يكرهه أو أحزنه (الأقرب).

ووجوهكم: الوجوه جمع الوجه وهو: نفس الشيء؛ سيد القوم؛ الجاه (الأقرب).

ليُتَبَّرُوا: تَبَّرَه أهلُكَه ودمَّره. تَبَّرَ كلَّ شيءٍ كسره وفتته. التبارُ الهلاكُ (الأقرب).

التفسير: تشير هذه الآية إلى فساد اليهود للمرة الثانية وإلى العقوبة التي حلت بهم حينذاك. والمراد من فسادهم هو إيذاؤهم عيسى عليه السلام، وأما العقوبة فهي ذلك الدمار الذي حل بهم على أيدي الرومان بعد حادث الصليب بسبعين سنة. مما يعني أنهم قد دُمِّروا في حياة عيسى عليه السلام، إذ يتضح من الأحاديث الشريفة أنه

عاش ١٢٠ عامًا،\* وأما حادث الصليب فوقع حين كان في الـ ٣٣ من عمره. (A New Testament Commentary, P. ٦٢-٦٤)

وتفصيل هذا الخراب أن الملك الرومي بعث أحد قواده "فسباسين" (Vespasian) لقمع اليهود عقاباً على تمردهم. وبينما "فسباسين" منهمك في عملياته القمعية رأى رؤيا قرّر بناءً على ما فهم منها العودة إلى روما، لأن الأخبار القادمة من هنالك لا تبشر بالخير، وإنما تنذر باندلاع الفتن. ولدى عودته إلى الوطن حصلت أمور دفعت الناس ليختاروه ملكاً. فعين ابنه "تيطس" (Titus) أميراً على الجيش الذي خرج لغزو فلسطين. فقام "تيطس" بغزو القدس في ٧٠م، وأمر بهدمها. فهدمت أسوار المدينة ودُمّر معبدها، وتم القضاء على الحكومة اليهودية المتمردة. غير أن اليهود قاموا بثورة فاشلة أخرى في ١٣٥م لم تكن إلا بمثابة اضطراب الشعلة الأخيرة في الشمعة قبيل الفجر. (الموسوعة البريطانية: كلمة Jews، وتاريخ المؤرخين للعالم)

وكانت التوراة قد تنبأت عن هذا الخراب الثاني بالكلمات التالية:

"أغاروه بالأجانب وأغاضوه بالأرجاس. ذبحوا لأوثانٍ ليستِ الله.. لآلهةٍ لم يعرفوها، أحداثٍ قد جاءت من قريب لم يرهبها آباؤكم. الصخرُ الذي وكَلدك تركته، ونسيتَ الله الذي أبدأك. فرأى الربُّ ورذلَ من الغيظِ بنيهِ وبناتِهِ، وقال: أَحجُبُ وجهي عنهم، وأنظُرُ ماذا تكون آخرتهم. إنهم جيل متقلب.. أولادٌ لا أمانة فيهم. هم أغاروني بما ليس إلهًا. أغاظوني بأباطيلهم. فأنا أغيرهم بما ليس شعبًا.. بأمة غيبية أُغيظهم. إنه قد اشتعلت نارٌ بغضبي، فتتقدُّ إلى الهاوية السفلى، وتأكل الأرضَ وغلَّتْها، وتُحرقُ أسسَ الجبال. أجمعُ عليهم شرورًا، وأنفذُ سهامِي

\* انظر كسر العمال، فضائل أهل البيت، فصل في فضلهم، فاطمة رضي الله عنها، رقم الحديث (٣٧٧٣٢)

فيهم، إذ هم خاؤون من جوع ومنهوكون من حُمى وداءٍ سامٍّ. أُرسِلَ فيهم أنيابَ الوحوش مع حُمّةِ زواحفِ الأرض. من خارجِ السيفِ يُثكَلُ، ومن داخلِ الحدورِ الرَّعْبَةُ.. الفتى مع الفتاة، والرضيعُ مع الأشيبِ." (تثنية ٣٢: ١٦-٢٥)

لقد ورد هذا النبأ في التوراة بعد النبأ عن الفساد اليهودي الأول، بل بعد الوعد الذي قطع الله تعالى معهم بأنه سيأتي بهم إلى القدس بعد الفساد الأول، مما يدل على أنه نبأ عن عذاب ثانٍ غير العذاب الأول، وقد أشار القرآن إليه في قوله تعالى ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ  
لِلْكَافِرِينَ حَاصِرًا ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

حَصِيرًا: الحَصِيرُ: السجْنُ (الأقرب).

التفسير: بعد أن أخبر القرآن الكريم اليهودَ عما سيحلُّ بهم من دمارٍ يُريهم الآن بارقةَ أمل، حيث يقول لهم: بالنسبة للتوراة فقد شملكم الدمار الأبدي، ولكن ما زالت أمامكم فرصةٌ للازدهار خارج الشريعة الموسوية، حيث أفسح الله لكم مجال الرقي والازدهار مرة أخرى وذلك إذا عملتم بشرع الإسلام. فانتبهوا هذه الفرصة الذهبية، لثرتوا أفضال الله ثانيةً. أما إذا لم تغتنموها فسوف تحيط بكم العقوبات الإلهية من جديد، وستدمرون نهائيًا.

ما أروعَ الأسلوبَ الذي اختاره الله تعالى لنصح اليهود. فقد ذكرهم أولاً بما ورد في كتبهم من أنباء عن هلاكهم، مبيّنًا لهم أن كتبهم نفسها تؤكد أن لا مستقبل لهم الآن؛ وما دامت كتبهم نفسها تقضي بهلاكهم، فالخير في أن لا

يتلمّسوا الأعدار للتخلي عن الطريق المهجور الذي قد أمر الله تعالى بتركه، وإنما ينبغي لهم أن يقبلوا الإسلام، ليرثوا البركات الروحانية والمادية تارة أخرى.

وهناك نبأ في التوراة أيضاً عن هذا الطريق الجديد حيث تقول:

"وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجلُ الله بني إسرائيل قبل موته، فقال: جاء الربُّ من سيناء، وأشرقَ لهم من سَعِيرَ، وتلاًلاً من جبل فاران،\* وأتى مع عشرة آلاف قُدُوسِي، وعن يمينه نارٌ شريعة لهم. فأحبَّ الشعبَ. جميعُ قَدِيسيه في يدك، وهم جالسون عند قدمك.. يتقبلون من أقوالك" (تثنية ٣٣: ١-٣).

أي بواسطة النبي الذي يظهر من جبال فاران سيهياً الله لليهود أسباب البركة من جديد. فإن شاءوا ازدهروا مرة أخرى بقبول ما جاء به من الهدى. علماً أن هذه النبوءة وردت في التوراة بعد نبأ الدمار اليهودي مباشرة وفي الباب التالي.

ولنتذكر أن هذه الآيات كما تحذر اليهود أن مستقبلهم مظلم وفقاً لأنباء كتبهم، فإنها تحذر المسلمين كذلك أنه سيحلُّ بهم أيضاً العذاب مرتين لسوء أعمالهم كما حصل باليهود. وقد حل أول هذين العذابين بالمسلمين حين تم القضاء على خلافة العباسيين. وكان سبب ذلك الدمار الأول هو نفس السبب الذي كان وراء الدمار اليهودي بحسب التوراة، وهو أن المسلمين عندما فتحوا فرغانة تزوجوا بفتياتها الجميلات بكثرة، وكان أهل هذه المنطقة مشركين جداً، فأخذت العقائد الوثنية تتسرب إلى المسلمين عبر هؤلاء النسوة، وأخذت غيرتهم الإسلامية في الضعف شيئاً فشيئاً، إلى أن زحف على بغداد شعب همجي. والغريب أن هؤلاء القوم كانوا، بسبب همجيتهم وأجنبيتهم، غرباء بالنسبة للبلاد والحضارة الإسلامية مثلما كان البابليون أجانب بالنسبة لأهل فلسطين. وقد أزهدت في

\* علماً أن فاران هي جبال مكة، التي جاء النبي ﷺ لفتحها بعشرة آلاف قدوسي من صحابته. ولقد حرقوا الآن الكلمات التي تحتها الخط في بعض الطباعات الحديثة خاصة العربية منها، ولكنها لا تزال كما هي في بعض الطباعات القديمة باللغتين الأردية والإنجليزية. انظرُ صورة لها في آخر هذا الكتاب. (المترجم)

هذه المجزرة، التي نُفِّذت في بغداد وضواحيها، أرواحُ مليون وثمانمائة ألف (١٨٠٠٠٠٠) مسلم. لقد أعد هؤلاء الغزاة قوائمَ تضم أسماء أفراد الأسرة الملكية العباسية كلهم، وبحثوا عن كل فرد منها وقتلوه (الخليفة العباسية لعبد الفتاح السرنجاي ص ٢٩٦-٢٩٧). ويقال إنه لم ينج من الأسرة الملكية إلا شخص واحد، ومن نسله كان حكام ولاية بهاولبور الهندية. ولا يوجد اليوم سواهم عائلة واحدة تنتسب إلى العباسيين.\*

والدمار الآخر للمسلمين كان مقدرًا في الزمن الأخير، وقد بدأت آثاره تلوح في الأفق الآن. عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرًا - والعياذ بالله.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ  
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾

التفسير: يقول الله تعالى إن هذا القرآن يهدي إلى غاية هي أسمى كثيرًا من الغايات التي كان ينشدها الأولون، لذا لا بد أن يحقق نتائج أفضل مما حققته كتب الأولين. وستكون جوائز العاملين بالقرآن روحانية ومادية أيضًا، فاعملوا بهذا الكتاب أيها اليهود واطفروا بهذه الجوائز.

هذا، وتمثل هذه الآية تحذيرًا للمسلمين بأن الجوائز التي تنتظرهم هي أفضل مما ناله من قبلكم، فكونوا أكثر منهم حذرًا، لكيلا تصاب أجيالكم في وقت من الأوقات بالزهو والغرور جراء هذه النعم، فتفسد وتستحق عذاب الله تعالى.

\* بعد تسجيل هذه الملاحظة علمت أن بعض فروع العائلة الملكية العباسية تقيم في ولاية أتر

برديش الهندية أيضًا، فبعضهم أرسلوا إلى شجرة نسيهم أيضًا. (المفسر)